

الجمجمة

للشاعر الالهى الكبير رابندرناث طاغور

ترجمة الأديب المعروف

عبد اللطيف النشار

كان يجاور غرفتنا ونحن أطفال ، غرفة أخرى بها جمجمة معلقة . وكان نسيم الليل يحدث صوتاً إذ يمر من خلال تلك العظام ونحن بالنهار نحدث مثل هذا الصوت إذ نعبث بها .

وكان صديقنا المقيم فى تلك الغرفة طالباً بمدرسة الطب . وكنا نتلقى عليه درساً فى التشريح لأن أوصياءنا أرادوا أن نكون ملين بكل العلوم . أما أصحابنا فقد عرفوا مقدار نجاحهم فى تلك الرغبة وأما الذين لا يعرفوننا فغير لنا أن نستر عنهم الحقيقة مضت سنوات كثيرة على ذلك العهد ونقلت الجمجمة من تلك الغرفة وحى من أذهانتنا علم التشريح . ومنذ أيام قليلة زارنا ضيوف كثيرون فتركتم لهم غرفتي وقضيت الليلة فى الغرفة التى كانت بها الجمجمة . وانقضى معظم الليل وأنا مسهد أسمع أجراس الكنيسة تدق ساعة بعد ساعة . وما زال يضعف نور المصباح حتى انطفأ . وكان قد حدث للأسرة مصاب فى الأيام الأخيرة فاتجه ذهني بالطبيعة بعد انطفاء النور إلى التفكير فى الحياة والموت وفى أعمارنا القصيرة التى ينتقص منها مرور الليل والنهار ووصلت بى جولة الفكر إلى ذكرى الجمجمة . وبينما كنت أتخيل الجسم الذى كانت له هذه الجمجمة إذ تصورت فجأة أن إنساناً يمشى بالغرفة ويدور حول السرير . وكنت أسمع بوضوح تردد أنفاسه السريعة وتصورت أنه يبحث عن شىء مفقود . ولم تزل خطاه تسرع وكنت أشعر يقيناً بأن هذا مجرد وهم بعث فى ذهني المكثود طول الأرق . وكنت أعرف أن نبض قلبي العالى هو الذى حسبه خطوات السائر ولكننى بالرغم من ذلك أحسست برعشة باردة . ولكى أخلص من هذا الهم ناديت بصوت عال : « من هنا ؟ » فتخيلت أن الذى يسير قد وقف وأجابنى : « لقد رجعت أبحث عن جمجمتى » .

وخجلت أن أخاف من وهم خلقه خيالي فرفعت رأسي عن الوسادة وقلت :
« أفى هذا الوقت من الليل ؟ وماذا تفعل بجمجمتك الآن ؟ »

فكان الجواب : « ما هذا السؤال ! ألم يكن فى هذه الجمجمة كل سحر الشباب
وأثر الستة والعشرين عاماً التى عشتها ؟ أليس لى من أجل ذلك أن أبحث عنها
لأراها ؟ »

قلت : « لك ذلك فأبحث عنها كما شئت ودعنى أنم ، فأجانبى الصوت وهو صوت
امرأة : « ولكنك الآن وحدك فهل أجلس معك لتحدث قليلاً ؟ لقد كنت فى مدة
الحياة أتحدث مع أمثالك من الرجال وأود الآن أن أعيد ذكرى الحياة الماضية ،
ثم شعرت بأن إنساناً يجلس على مقربة منى فأجبت : « يسرنى أن أتحدث معك
فحدثنى بخبر لطيف »

وهنا دقت الساعة الثانية وقالت الزائرة : « أغرب شئ أذكره هو تاريخ حياتى
فدعنى أقله :

« لما كنت فى عالم الأحياء لم أر ما أخافه غير زوجى فلست أشبه قلبى بشئ
غير الأسماك التى تصاد بالخصوص « السنارة » فقد صاده هذا الغريب وأخرجه
من هدأة الطفولة وراحة الأسرة فلم يعد إليها . ومات زوجى بعد
شهرين فحزن عليه أهلى وأصدقائى وقال أبو الزوج لأمراته ان عيني تدلان على
السوء — هل أنت مصغ ؟ أرجو أن تسع القصة

قلت أنا مصغ وهذا ابتداء غريب فقالت : « دعنى أتمها . . . فعدت مسرورة إلى
منزل أهلى وقد كنت أعلم أنى من أجل الناس وان كان أصحابى لا ينصفوننى فاذا
ترى أنت ؟

قلت : « ربما كنت جميلة ولكننى لا أذكر أنى رأيتك » فقالت كيف كيف
لم ترى ألم تنظر إلى الجمجمة ؟ ثم ضحكت وقالت : « نعم ان الشهادة التى شهدتها الجمجمة
عن جمالى شهادة باطلة فليس فى الثقبين الخاليين أقل إشارة إلى سحر نظراتى وقتنة
العينين والخدين وليس فى عظام الفم ما يدل على حسن ابتسامى وجمال الشفتين
العقيقتين وليس من السهل اقناعك أن العظام التى رأيتها كانت لوجه فاتن مشرق الطلعة

لين الملمس غض الشباب و أن محاولتي اقناعك لتدعوني إلى الابتسام و لكنني تبعث في نفسي غيظاً منك و ما كان الاطباء في عصرى يتخيلون أن هذا الوجه سيصير أداة يتعلم عليها الطلبة علم التشريح ، لقد كان في عهدي ، طبيب لقيني بالزنبقة و ما كان ليدعوني كذلك لو فكر في أنك أنت و أصحابك ستدرسونه علمه على جمجمتي

• لقد كنت كلما مشيت أشعر بأنني كالناس و ان لي مثل ماله من ضياء ما فأينما التفت الفيت حولي شعاعاً من الحسن و كنت أقضي الساعات ناظرة إلى يدي ، إلى هاتين اليدين اللتين فتتا أجمل الرجال

ولسكنك قد نظرت إلى جمجمتي فما تصدق ما أقول و لهذا أبغضك و سأشردنومك في ليلة من الليالي بأن أريك فتنة الحسن في بعض أحلامك و أضيع ما في رأسك من علم التشريح !!

قلت : • اقسم بجسمك ان كان لا يزال له وجود ان ليس في رأسي كلمة من علم التشريح و ليس به الآن غير صورة من الجمال تسطع في حلك الليل . و ما أستطيع الآن أن أزيد ، فقالت : • لم يمكن لي صواحب من النساء . و كان لي أخ واحد وضع نصب عينيه ألا يتزوج . و كنت وحدي في منزله اقضي الساعات في الحديقة حاملة بان الكون يحبني و ان نجومه الساهرة ترتوي من ينبوع حسني . و ان الرياح تنن من تبريح شوقها و ان الارض التي اطوها لو كانت تعقل لغاب عنها رشدها حينما اخطو عليها . و ان كل شباب الدنيا حشائش خضراء قد امتد منها بساط لاسير فوقه . ولكن قلبي بالرغم من ذلك كان يزيد حزناً على حزن

• لما نجح شيكار - صديق أخى - في امتحان الطب أصبح طبيباً للأسرة . و كنت قد رأيته مراراً من وراء حجاب . و كان أخى غريب الأطوار فهو لا يريد أن يرى الدنيا بعينين مفتوحتين و لم يكن له صديق غير شيكار فهو هو الرجل الواحد الذي عرفته . . هل أنت سامع ؟ فيم تفكر ؟ •

فتنهت و قلت : • تمنيت ان أكون شيكار ! • فقالت : • انتظر واسمع قصتي : في ليلة مرضت وجاء الطبيب ليراني و كانت هذه أول مقابلة . و نمت عندما جاء بقرب النافذة لينعكس احمرار الجو عند الغروب على وجهي . و نظر الطبيب الى فتخيلت

نفسى فى مكانه وتصورت أننى انظر الى مثل وجهى . وقد انسدت فوق جبينى الناصع
خصلة من شعرى الأسود وتحت خدى الوسادة البيضاء . وقد انسكب فوق وجهى
شعاع الغروب . فسأل الطبيب أخى فى استحياء : « هل أجس نبضها ؟ » فددت
اليه معصما وقلت فى نفسى : « آه لو كان يزين معصمى هذا اسواره ! » (١)
ولم أرى حياى طبيياً غيره يضطرب وهو يحس نبض المريض فقد كانت أصابعه
ترتعث وكان يحس النبض من ذراعى ليعرف حرارتى وأنا أجس النبض من قلبه
لأعرف مبلغه ، الاتصدق ؟ !

قلت : « بل أصدق لان القلب يروى حين ينبض قصة العمر » فقالت : « وبعد أن
مرضت مراراً وشفيت مراراً . وجدت ان الذين يسكنون دنيا خيالى قد انتقصو
حتى لم يعد غير اثنين فواحد الطبيب ثم عليه وهو انا

« وكنت فى بعض الليالى ألبس جواهرى سرا وارتنى ثياب العرس وأضع على
رأسى أكليلا من الفل والياصمين وأجلس فى مجلسى المعتاد تحت الشجرة

« هل تظن أن الجليل يتعب من النظر الى جماله ؟ كلا ! فقد كنت انظر الى نفسى
بعينى الطبيب وكنت أنظر اليه بعينى نفسى لقد كنت واحدا ولكنى اثنان . وافقتت
وسحرت وأحببت ولكنى أسرفت فى ذلك . وكنت أفطن فى بعض الاحيان فأتهد
حسرة على نفسى السابحة فى الاجواء كأنها النسيم

من ذلك العهد لم أعد وحيدة . . ثم ماذا لو جعلت هنا نهاية قصتى ؟
قلت ان شئت فلا بأس ولكن تكون قصة غير كاملة . وفى استطاعتى أن أضع
بقيتها عند الصباح . . فقالت ! ولكن لا بد من تمامها لافسر لك الابتسامة البادية على
فم الجمجمة فبعد أن جلست مراراً مع الطبيب صرت أسأله عن أنواع السموم وأيها
أقرب للقتل . وملاّت هذه المحادثات ذهنى بفكرة الموت . وهكذا لم يعدلى فى الحياة شاغل
غير الحب والموت : وقد قاربت قصتى النهاية فقلت : « وكذلك قد قارب الليل النهاية »
قالت : « وبعد عهد لاحظت أن الطبيب يحتفظ بسر يخجل من ابدائه لي وجاء
مرة فى ثياب جديدة وطلب أن يعيده أخى العربة فى الليل فسألت أخى عن السبب
وعلمت أن الطبيب سيتزوج وان هذه الليلة هي ليلة عرسه

« عند ذلك ضحكت ضحكة عالية وعلمت أن زوجته وارثة وأنه خطبها من أجل مآلها . ولكن لماذا يخفى سره عني ؟ لقد كنت أتوسل إليه الا يتزوج لان ذلك يكسر قلبي . ولكن الرجال لا ينبغي أن يوثق بهم .
ولما عاد الطبيب في عصر ذلك اليوم قابله وكنتم أضحك كالعادة . وقالت ..
هل ستزوج الليلة ؟

فارتبك من هذا السؤال . وعدت فقلت : « ولكن أين الموسيقى وابن معلم الفرح ؟ ، فتند وأجاب ! « وهل الزواج مفرح ،
ضحكت مرة أخرى وقلت ! « لا بد من إيقاد الشموع واستدعاء الموسيقى ،
وحملت اخي على طلبهما فذهب وتركنا وظللنا نتكلم عن عروسه وعن إكرامى لها
عند ما تزورنى وقلت . وهل ستبقى تجس نبض الناس ؟ ،
فبدالى اضطرابه وإن كان ما فى كل النفوس أخفى من الحفاء ، ولما جاء أخى قدمت
اليهما النيذ فشربا ثم ذهبا الى العرس

« ولا بد هنا من اخبارك بشئ . هو أننى كنت اشتريت سماً ووضعته فى كأس
الطبيب ثم شربت كأساً أخرى مسمومة وظللت اسمع صوت الموسيقى وأنا ألبس
ثياب العرس وأتحلى بالجواهر والازهار ثم نمت وكانت ليلتى جميلة وكانت الريح
الشرقية تهب فتحمل لى روائح الفل من الحديقة وتحمل عني ذكريات الدنيا . وصار
يضعف صوت الموسيقى شيئاً فشيئاً ثم أغمضت عيني وابتسمت

وأظن أن الناس أتوا وأقرأوا فوق ابتسامتى أثر النيذ والسم . وأظنى دخلت
القبر وأنا لا ازال ابتسم . ولما انتهت روحى بعد الموت رأيتم تتعلمون التشريح
على جمجمتى التى كانت بها ذكر ياتى ... هل أعجبك هذه القصة ؟

قلت : « هى قصة ممتعة ، ثم صاح الديك فقلت ! « هل أنت هنا ؟ ،
فلم يجبنى أحد ثم انار الفجر غرفتى .

